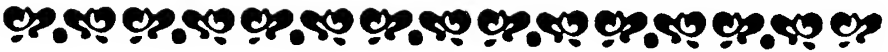


# جهاد ابن تيمية في سبيل الاسلام وتربية الأمة



إعداد الأستاذ الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي  
جمهورية مصر العربية

من أعلام الفكر الإسلامي وصاحب مدرسة إسلامية أحدثت أثرها في الثقافة الإسلامية ، وتربى عليها أجيال من الأمة على مر العصور حتى اليوم . وقد نشأ في عصر انحسر فيه المد المغولي عن العالم الإسلامي ، وتولت أسرة المماليك في مصر حماية الحدود الشرقية لممالك العروبة والإسلام ، ونشأ عن ذلك امتداد الثقافة العربية من مصر إلى الشام ، وكذلك وجدت مظالم كثيرة بسبب طغيان بعض المماليك ، لذلك كان ابن تيمية لسان نصيح وارشاد وتوجيه ودعوة إلى الحق والعدل والشعور بالمسئولية وتبعات الحكم . وكان هذا النصيح الدائب منه إلى الحكام يوقفه مواقف الاضطهاد من الحكام ، حتى لقد سجن مراراً ، ولكنه لم يكف يوماً ما عن أداء رسالته ، والقيام بواجبه وارضاء ضميره .

ابن تيمية

عاش ابن تيمية في عصر الجهاد الحربي في سبيل الدفاع عن الوطن الإسلامي ، وشارك بنفسه وماله وفكره وفقهه في معارك الإسلام الكبرى في حياته ، وترك تراثاً خالداً من عبقرية البطولة ، وعظمة التضحية والجهاد في سبيل الإسلام والمسلمين ، ولقد عاش الامام ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله الحراني في فترة من أشد فترات التاريخ الإسلامي حرجاً ، وأكثرها خطراً ، وأعظمها اثارة . فقبل ميلاده بخمس سنوات سقطت بغداد في أيدي التتار وصار الشرق العربي كله معرضاً لغزوهم وتدميرهم ، وكانت مصر والشام آنذاك قد انتهت حكم الأيوبيين منهما ، وتسلمت أمورها والحكم فيها دولة جديدة هي دولة المماليك التي وضع القدر بين يديها مصير الشرق العربي والعالم الإسلامي يومئذ . وتقدم هولاء التتاري - من بغداد - بعد أن سقطت بين يديه - إلى الشام فاستولى عليها ، وواصل سيره إلى مصر وفي أرض فلسطين ، وفي معركة عين جالوت قاتله قطز ملك المماليك وسلطانهم قتال الأبطال وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م كان النصر حليف سلطان المماليك وسحق الغزاة المدمرون ، وعاد قطز من المعركة والعالم الإسلامي كله يهتف باسمه وأكاليل المجد والحمد تطوق عنقه ، ألا أن بيبرس قائد اغتاله في الطريق وتولى عرش مصر بعده عام ٦٥٨هـ حتى عام ٦٧٦هـ وقد أحيى الخلافة العباسية من جديد وجعل مقرها في ديار مصر .

وفي أوائل حكم بيبرس ولد الامام ابن تيمية عام ٦٦١هـ ، وعاش في ظلال دولة المماليك البحرية التي امتد سلطانها فشمّل الشام واليمن والحجاز وأطراف العراق ، وعاصر ابن تيمية السلطان الأشرف خليل الذي قضى على امارات الصليبيين في الشام عام ٦٩١هـ ومن خلفه من السلاطين ، وكان مولد الامام ابن تيمية في حران ثم انتقل به وباخوته والده إلى دمشق ، حيث أقام ، وبها نشأ وعاش وامتدت به الحياة سبعاً وستين سنة حافلة بالاحداث والمحن والخطوب .

وابن تيمية من أسرة علمية جليّة ، وكان أبوه وحده من علماء الإسلام المبرزين ، وكانا مثليّن سائرین في الزهد والورع ، وكانا يقومان بالخطابة والوعظ وخدمة القرآن والقيام على السنة مع الزهد والعفة والدين . وقد قال الذهبي في والده : كان أماماً محققاً كثير الفنون ، وانما اخفى من ضوء الشمس - يريده والده - ونور القمر - يريد ابنه . كانت دمشق في هذا العهد تضج بمجالس العلم وحلقات العلماء ، وكان للحناية فيها شأن أي شأن ، ومن أجل علمائها آنذاك موفق الدين بن قدامة الذي يقول فيه تلميذه ابن تيمية : لم تر الشام بعد الأوزاعي مثل « موفق الدين » ، وقد تولى منصب قاضي القضاة في دمشق مدة طويلة ٦٤٦ - ٦٧٦هـ ، ودرس ابن تيمية في المدرسة العسكرية بدمشق وتخرج منها ، كما تخرج فيها والده من قبل . حفظ ابن تيمية القرآن واشتغل بالحديث ، ونفع في التفسير ، وقرأ كتب الطبقات ، وتفوق في العربية ، وقرأ كتاب سيبويه ، وكان نادرة زمانه حفظاً ورواية - وذكاء وفقهاً في علوم الدين . وحفظ ابن تيمية العلوم واستوعب السنن والاثار ، وصار إن تكلم في التفسير

فهو حامل رايته ، وان أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، وان ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، وان حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من علمه ولا أرفع من رايته ، برز في كل فن وكل علم ، ولم ترعين مثله ، آية في نقد الرجال ، عمدة في الجرح والتعديل ، وعالم بالتفريع والتأصيل ، وامام في القراءات ، وفقهه بمختلف المذاهب والآراء والنظريات ، قام بين الخلق بنشر السنة ومذاهب السلف ، شجاعته واقدامه وجهاده أمر تجاوز الوصف ، وفاق النعت . واشترك في حرب التتار وجاهد في الله بلسانه وسنانه ، وشهد له علماء عصره بالتبريز ، حتى قال فيه معاصره الشيخ ابراهيم الرقي : الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه ، ويقلد في العلوم ، فإن قال ملا الأرض علماً ، وهو على حق ولا بد من أن يعاديه الناس ، لأنه وارث علم النبوة . وقال فيه العمري : هو نادرة العصر وهو البحر من أي النواحي أتيته ، هو البدر - من أي الضواحي رأيته ، قطع الليل والنهار دائبين ، واتخذ العلم والعمل صاحبين ، إلى أن أسر السلف بهداه ، ونأى الخلف عن بلوغ مداه ، جاء في عصر مأهول بالعلماء ، مشحون بنجوم السماء ، الا أن شمس طمست تلك النجوم ، وبحره غرق تلك العلوم ، ترد إليه الفتاوى فلا يردها ، وتغذو عليه من كل وجه فيجب عنها .

ووصفه الذهبي بالعلم العزيز في الحديث وعلومه والتفسير ودقائقه ، ويقول : ولفرط امامته في التفسير وعظمة اطلاعه ، بين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، وينصر قولاً واحداً يوافق ما دل عليه القرآن والحديث . وقال فيه الحافظ الزمكاني : له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان الامام ابن تيمية يترسم خطا الامام أحمد بن حنبل ، ويجله من كل جوانبه وبخاصة في الفقه والعقائد ، ويقول عنه صار أحمد مثلاً سائراً يضرب في المحنة والصبر على الحق ولم يكن يأخذه في الله لومة لائم حتى صارت الامامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد .

ونزل ابن تيمية مصر يستنهض الممالك لحرب المغول ، فأقام عند شرف الدين العمري ، ولقيه أبو حيان النحوي ، فأعجب به أبو حيان وقال في ابن تيمية : ما رأيت عيناى مثله . وفي عظمة الامام ابن تيمية في التفسير ، وسعة اطلاعه فيه يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يامعلم آدم و ابراهيم علمني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يامعلم ابراهيم علمني ، ولقد بلغ الامام ابن تيمية رتبة الاجتهاد واجتمعت فيه شروط المجتهدين ومع أنه كان حنبلياً فقد كان له اجتهاد في مذاهب أحمد وينكر التعصب له ولغيره ، ويقول أمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبهه أهل الأهواء ، سواء تعصب لمالك أو لأبي حنيفة أو لأحمد أو غيرهم ، وذكر أن هذا التعصب كان من أسباب تفريق المسلمين وتسليط الله التتار على بلادهم ، ويعتمد مذهب أحمد على خمسة أصول : النص وفتوى الصحابة والتخير من أقوال الصحابة - عند اختلافهم - ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة ، والأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ويرجحه على القياس ، وأخيراً القياس حيث يستعمله للضرورة .. وهذا ما كان . عليه رأى ابن تيمية . وقد اعتبر ابن تيمية الاجماع حجة ، والقياس الصحيح حجة ، والمصالح المرسلة حجة إذا استندت إلى شاهد من كتاب أو سنة . ويقول بوجوب أن تكون الأمور كلها - مردودة إلى كتاب الله وسنة رسوله . وكان يختار من الآراء الفقهية والأصولية ما يراه متفقاً مع ما صح عنده من فهم للكتاب أو للسنة ، وربما مال في بعض المسائل عن مذهبه إلى مذهب أبي حنيفة أو مالك .

وقد حصل الفلسفة وكتب فلاسفة الإسلام ونقدها ، وعاب المنطق بأن بعضه حق وبعضه باطل .

وألّف ابن تيمية في كل علم ، وجال في كل فن ، حتى بلغت مؤلفاته نحو الثلاثمائة ، مع ما ابتلي به من المحن والحبس الطويل في قلعة دمشق وفي سجون القاهرة والاسكندرية ، سجن في القاهرة في البرج ، ثم في الجب هو وأخواه زين الدين وشرف الدين ولم يزد السجن إلا اصراراً على عقيدته وظل كذلك حتى أخرجه حسام الدين مهنا بن عيسى شيخ عربان الشام من حيث بقي فيه ثمانية عشر شهراً ، وصبر ابن تيمية على أذى الامراء وأذى العامة وعلى محن الحبس وعلى مكائد علماء عصره ، وزار في مصر سجن القضاة بحارة الديلم قريباً من الأزهر ، وعاش في الاسكندرية في برج مطبق له شبّاكان ، أحدهما إلى جهة البحر ، ولعله قلعة قايتباي ، وكان ينتقل من سجن إلى سجن . تنقل النجم من برج إلى برج حتى أسلم الروح إلى بارئته عام ٧٢٨هـ بعد كفاح طويل ، وحياة حافلة بالأحداث والخطوب .

ومن أجل كتبه : فتاواه الشهيرة ذات الأثر الضخم في حياة المسلمين في عصره وبعد عصره حتى اليوم ، ومن كتب : منهاج السنة ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، والفرقان ، ورسائله الحموية ، والتدمرية ، والواسطية ، والبغدادية ، والبلعبكية ، والأزهرية . ومن المسائل التي أؤذي الامام ابن تيمية بسببها والتي أثارها نضاله مع الروافض .. مسألة زيارة القبور ، فقال في كتابه - منهاج السنة - ان منهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة وهو يرى أن هذه المغالاة في تعظيم القبور والمشاهد وشد الرحال إليها لم يرد في كتاب وسنة ولا عمل من صحابة أو تابعين .

ويقول في فتواه المشهورة في شد الرحال إلى زيارة القبور : أول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهل البدع من الروافض الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد مع أنه لا يمنع لزيارة الخالية عن شد الرحال بل يندب إليها ، وكتبه ومناسكه شاهدة بذلك وكانت هذه الفتوى سبباً في حبسه في قلعة دمشق .

وقد أثير ابن تيمية التوسل والوسيلة ، ويرى أن الوسيلة هي العمل الصالح يقدمه صاحبه بين يديه أمام الله عز وجل .

وينتمي ابن تيمية إلى مذهب أهل الحديث والسنة ويقول بمذهب الجماعة كأحمد بن حنبل ، ويخاصم المعتزلة والاشاعرة ، وينقد الاشعري والباقلاني وامام الحرمين والغزالي ، وكان ينكر على الغزالي تحكيمة للفلسفة وقوانين المنطق في أحكام الشريعة وأصولها ، ويبين أنه انما عول على ابن سينا وجماعة أخوان الصفا ، وأخذ عنهم من الفلسفة ، كما أخذ من مذاهب التصوف بن أبي حيان التوحيدي ، واستعد من قوت القلوب لابي طالب المكي ومن كتب الحارث المحاسبي ومن رسالة القشيري ، وقد خلط التصوف بالكلام والأصول بالفلسفة . وتأثر ابن تيمية بأسلوب الغزالي في المناقشة والجدل ، واستعمل في ذلك أساليب الفلسفة واصطلاحات المناطقة في شتى رسائله وكتبه . وله كتاب الرد على المنطق ، وكتاب الرد على الفلاسفة .

وقد حاج الصوفية وكان يرى الصوفية المتأخرة مبتدعة لايعرفها الإسلام ، أما التصوف الأول الذي ارتضاه السلف فهو جزء من السنة والأثر ، ومن أمثلته ما في كتاب الزهد والورع لأحمد وكتب . وآراء الجنيد ، وما عدا هذا فهو عنده بدعة ويمثل هذا النوع في رأيه الحلاج وابن عربي وابن سبعين واضرابهم .

وناقش الشيخ ابن تيمية الخوارج والشيعة والروافض وكتابه « منهاج السنة النبوية »

الذي كان نسيج وحده - يمثله لنا عالماً من الطراز الأول .. ويناقش فيه رأي الشيعة والباطنية والقرامطة ، ويقول ان السواحل الشامية انما استولت عليها النصارى من جهتهم وقد كفر الروافض ونقد المنحرفين ، وفي كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » يحاج الصوفية ويقول : انه لايجوز لأحد أن يعتقد أن أولياء الله طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء . ويرى أن آراء ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض هي فلسفة يونانية خالصة . وابن تيمية لايجوز للقادر على الاستدلال أن يقلد الا عند الحاجة ، فقد فتح باب الاجتهاد لكل قادر ، وفي كتابه « السياسة الشرعية » يرسم القواعد لاصلاح حال الراعي والرعية . ومذهب ابن حنبل يتمسك بنصوص الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والوجه وغير ذلك من احاديث الصفات . ويقول ابن تيمية في عقيدته الحموية عن أحمد لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والسنة وذلك من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ، ويرى ما رآه أحمد في القرآن الكريم من أنه كلام الله وهو غير مخلوق فمنه بدا وإليه يعود كما ذكر في العقيدة الواسطية .

هذه الآراء الدينية الخطيرة هي التي ألبت عليه الحكام والعامة وعلماء عصره وقادته إلى المحن - والخطوب وإلى السجن مرات ومرات وعاش مولياً وجهه إلى السماء وكان في الغاية التي انتهى إليها من الورع ، حتى استأثرت به رحمة الله .

وكان من أجل تلاميذه ابن القيم<sup>(١)</sup> رحمه الله ( ٦٩١ - ٧٥١ هـ ) ( ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م ) وترك الامام ابن تيمية ذكراً خالداً وعلماً نادراً وكتباً سائرة ودعوات اصلاحية تقوم على مذهبه تأخذ منه وترجع إليه وتعتبره عمدتها في الأصول والفروع ، ومنها الدعوة الاصلاحية الكبرى دعوة الامام المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وغيرها من الدعوات السلفية . جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

### مصادر البحث :

- مناقب الامام أحمد بن حنبل لابن الجوزي .
- حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لبهجة البيطار .
- طبقات الحنابلة لأبي يعلى .
- أحمد بن حنبل للشيخ محمد أبو زهرة .
- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب .
- ابن تيمية بطل الاصلاح الديني لمحمود مهدي استنبولي .
- ابن تيمية لمحمد يوسف موسى .
- ابن تيمية لعبد العزيز المراغي سلسلة اعلام الإسلام .
- وراجع قادة الفكر الإسلامي للشيخ عبد الله بن سعد الرويشد .

### الهوامش :

(١) ابن القيم الجوزية شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر الدمشقي لازم الامام ابن تيمية وأخذ عنه وتفنن في جميع العلوم الإسلامية وأوذي مرات وسجن مع شيخه ابن تيمية في قلعة دمشق ولم يفرج عنه الا بعد موت الشيخ وله الكثير من المؤلفات مثل : زاد المعاد ، ومدارج ، السالكين ، وحادي الأرواح .